

مرافئ في ذاكرة يحيى السماوي

(الحلقة التاسعة عشرة)

لطيف عبد سالم

يقول أدونيس إنَّ الشعرَ ليس مجردَ تعبيرٍ عن الانفعالاتِ وحدها،
إنَّما هو رؤية متكاملة للإنسانِ وَالْعَالَمِ وَالْأَشْيَاءِ، وَكُلُّ شاعرٍ كبيرٍ
هو مفكِّرٌ كبيرٍ. وَلَا أخفي سرّاً أنَّ تمعني في الرؤية المذكورة آنفاً،
كان من بين أهم الأسباب الموضوعة التي حفزتي للخوض في
غمارٍ - ما أتيج لي - من تجربة الشاعر الكبير يحيى السماوي
بأبعادها الإنسانية، بعد أن تيقنت من سمو منجزه الشعري
المغمس بثرأء فكري وحس وطني ووعي عقلائي يعبر عن إيمان
بسلامة الخطى ووضوح الرؤية، فلا غرابة في أن يكون للإنسان
والحب والجمال حضوراً وجداني في ما تباين من أجناس نصوصه
الشعرية الرشيقة الأنيقة، والمؤطرة بذوق عالٍ وحسٍ مرهف،
بالإضافة إلى توشيم بعض فضاءات نصوصه الشعرية بمفرداتٍ
منتخبة بعناية ودراية من مؤروثنا الثقافي والاجتماعي؛ موظفاً ما
تكتنزه ذاكرته المتقدة المتوهجة من صور ما بين طياتها، والتي
ظلت ملتصقة بوجدانه ولم تفارقه، فثمة مفردات من التراث
الشعبي ما يزال لها صدى في بعض نتاجاته الشعرية.

ثمة عبارة لا يحضرني الآن اسم من قالها أو عنوان الكتاب الذي
قرأتها فيه، فالأسماء كما قيل: " تطوف بالذهن حين لا نريدها،
وتستعصي إذا طلبناها"، إلا أنني أحفظها عن ظهر قلب منذ أيام
دراستي في سبعينيات القرن الماضي في إعدادية الجمهورية في
مدينة بغداد، والتي مفادها: " ألا أسوأ من الفقر، إلا فقدان الرغبة
في الحياة"، فالفقر بحسب الأدبيات الاجتماعية هو الحالة أو
الوضع الذي يحتاج فيه الفرد أو المجتمع إلى الموارد المالية، فضلاً
عن الأسس الضرورية للتمتع بأدنى مستوى من الحياة والرفاهية.
وبالاستناد إلى تقرير التنمية في العالم الصادر في عام 1990م عن

" البنك الدولي للإنشاء والتعمير "، يُعرف الفقر بوصفه " عدم القدرة على تحقيق الحد الأدنى من مستوى المعيشة ". وقد وجد بأن الأطفال الذين ينشؤون في بيئة فقيرة يعانون من مشكلاتٍ صحيّةٍ بشكلٍ مستمرٍ ومتكرّرٍ بخلاف الأطفال الذين ينشؤون في ظلّ ظروفٍ ماليّةٍ أفضل، فالمثير للاهتمام أنّ الأطفال في كثيرٍ من الأسر الفقيرة يفتحون عيونهم على الدنيا بوزنٍ منخفضٍ عند الولادة، إلى جانب كونهم أكثر عرضةً للموت قبل إتمامهم عامهم الأول، ما يعني احتمال تعرضهم لكثيرٍ من المشكلات الجسديّة والإعاقات العقليّة، والتي لا يمكن الوقاية من حدوثها إلا بتوفير الرعاية الصحيّة الأوليّة.

*

ماذا سأخسرُ

حين يقتحمُ الخرابُ

كهفَ الكهولةِ

حيث جثمانُ الشبابِ ؟

لا شيءَ يخسرُ شوكتُ أيامي

إذا انحسرَ السرابُ !

الماءُ من حجرٍ ..

وأرغفةُ المدينةِ من ضبابِ

ناطورنا لصُّ ..

وأما حارسو مرعى المدينةِ فالذئابُ

ليس خافياً أنَّ الفقرَ بفعلِ مَا يحملُ في ثناياه مِنْ أبشعِ صورِ القبحِ في المعاناةِ الإنسانيَّةِ، لا يعرفُ معناه إلا مَنْ تكابدُ معاشةَ أيامه أو مَنْ شعرَ بِمعاناةٍ غيره ممَّنْ تجرَّعَ مرارةَ العوزِ، وثقلَ مراثي الأيامِ، بالإضافةِ إلى مَنْ بوسعهُ الشعور - على نحوِ صارخٍ - بما يتلمسُ مِنَ الفقرِ المسَّ بالكرامةِ الإنسانيَّةِ للأفرادِ؛ إذ لا أظنُّ أنَّ هناكِ أسوأ، ولا ألَعنُ مِنْ مصاحبةِ الألمِ النفسي والروحي للإنسانِ يعشقُ الحياةَ وَأَنسها وَلطفها وَيحاولُ النهلَ مِنْ عذوبتها؛ نتيجةَ معاناته الدائمةِ مِنَ العوزِ وَالفاقةِ وَالحرمانِ، وَالَّذِي قد يجعله لا يفكرُ بأيِّ شيءٍ في الحياةِ سوى الوقوعِ في شباكِ الموتِ البشريَّةِ رويداً رويداً ببطءٍ. وَمَا أظنُّني مبالغاً إن قلتُ أنَّ ذلكَ الأمسَ الحافلُ بالزفرياتِ فوقَ سنينِ همومِ الكثيرِ مِنْ أهلنا ليس بعيداً بمعطيَّتهِ عَنُ مَا يجري في أيامنا، وكما يقولُ الروائي والفيلسوفُ الروسي " فيودور دوستويفسكي " في روايته الجريمة والعقاب : " مَا يَزَالُ يخيِّلُ إليَّ أنَّ فيك شيئاً قريباً مني كلِّ القرب "؛ إذ أنَّ رمادَ وقائعِ الأمسِ، وَمَا حملهُ مِنْ حشراتٍ في جبينِ مَنْ عاشه ليس بعيداً عَنُ حاضرنا، بل يَبْدُو أَنَّهُ ملتصقٌ به، فَمَا يَزَالُ يتتأثرُ فوقَ أيامنا. فلا نبعدُ عَنُ الواقعِ أو نبالغُ إذا قُلْنَا أنَّ الفقرَ بمعناه الواسعِ تفشى في العراقِ مَا بَيْنَ المواطنينِ في الأعوامِ القليلةِ الماضيةِ بفعلِ سوءِ تخطيطِ الإداراتِ المتأتيةِ مِنْ ركونِ القياداتِ الإداريةِ إلى اعتمادِ نهجِ " المحاصصة " الَّتِي هيمنتُ على البلادِ، وأصبحتُ وبالاً على العِبَادِ، حتى أصابَ الفقرُ، وَمَا تباينَ مِنْ تداعياتهِ الكثيرِ مِنْ أهلِ أغنى بلدانِ العالمِ بالثرواتِ، وأكثرها كرمًا للغرباءِ.

حلمتُ يوماً أنني جناحُ

وحيثما استنقظتُ

كانت السماء صهوةً

وسرّجها الرياحُ

وكان ما بيني وبين الوطنِ المُباحِ

مشنقةً

تمتدُّ من ستارةِ الليلِ

الى نافذةِ الصباحِ

*

حلمت يوماً أنني صرتُ «أبا نواسٍ»

وحينما هاجر من أحداقي النعاسُ

رأيتُ جفني زقَّ أحزانِ

وجرحي كاسُ

وكان ما بيني وبين الوطنِ الجريحِ

قيحُ

ودمٌ يسيل من منذنةِ الصباحِ

وروضةً مذبوحةً الأعراسِ

*

المتوجبُ إدراكه أيضاً أنّ الفقرَ بالاستنادِ إلى المفاهيمِ الحديثةِ
المبينة في أدبياتِ التنمية المستدامة ينظر إليه بوصفه " أكثر من
مجردِ الافتقارِ إلى الدخلِ وَالمواردِ ضماناً لمصدرِ رزقٍ مستدام "؛
إذ أنّ الفقرَ يشيرُ على وفقِ هذا المعنى إلى الحرمانِ المادي الَّذي
يترتب عليه التدني في كافةِ المستوياتِ، ولاسيّما المستوى التعليمي
والمستوى الصحي والسكني، فضلاً عما قد يفضي إلى انعدامِ ثقة

الفقير بالمُجْتَمَعِ وَفقدان احترامه لمبادئ التعايش، وَلَعَلَّ مِنْ أبرزِ مظاهر الفقرِ وَأهمها : الجوع وَسوء التغذية، ضآلة إمكانيّة الحصول عَلَى الخدماتِ الأساسية كالتعليمِ وَالصِّحّة، التمييز الاجتماعي، الاستبعاد مِنْ الْمُجْتَمَعِ، فضلاً عَنْ عدم المشاركة فِي اتخاذِ القرارات؛ لذا يتعين أَنْ يكونَ النُّمُو الاقتصادي مخططاً لَهُ عَلَى وفقِ سبيلِ ضامنة للخروجِ بالفردِ مِنْ مستوى خط الفقر. وَتُحضرني الآن مقولة لرئيسِ البرازيل الخامس والثلاثين " لويس سلفا "، لا أعرف كيف قفزت إلى خاطري، وَالتّي يقول فِيها : " إِنَّ الفقرَ يُعَدُّ أسوأ أسلحة الدّمار الشّامل على الإطلاق ". ويبدو أَنَّ الرجلَ كان مصيباً فيما اعتقد، ولعلَّ خير شاهد عَلَى ذلك أَنَّ الفقرَ كان عَلَى مرِّ العصورِ مِنْ أبرزِ الأسبابِ الرئيسيّة التي أدّت إلى قيام الكثيرِ مِنَ الثوراتِ الاجتماعيّة وَالسياسية " الكبرى " التي شهدتها التاريخ الإنساني؛ لأنَّ الفقرَ يُعَدُّ آفة جسيمة الأثر، بوصفها ولادة للخوفِ وَالاحباط، وَمَا يترتب عَلَى ذلك مِنْ بؤسٍ وَاضطهادٍ وَضيم.

*

موائدنا تخلو من الدسم ..

قدورنا بيضاء ..

وأعذاق نخيلنا

لم تُعد تسيلُ عسلاً ..

فما الذي أغوى

كل هذا الذباب البشري

لدخول العراق ؟

*

رأتِ المآذِنَ مُمَدَّةً على القِبابِ ..

والنخيلَ حليقَ الرؤوسِ ..

ولا ثمةَ غيرُ دخانِ الحرائقِ ..

لذا :

اكتفتِ اللقائُ والطيورُ المهاجرةَ

بتأشيرة " ترانزيت "

ما دامت لن تجدَ في العراقِ

مكاناً مرتفعاً

لأعشاشها !

*

يبدو أنَّ العراقيَّ رسمت له الأقدار ملحمة صراع متفردة مِنْ أجلِ البقاءِ عَلَى قيدِ الحياة، فهذا المبتلى بشقاءِ الليالي : لا أمانَ له مثل سائرِ الأقوامِ، فهو كَمَنْ يخالجه شعورُ المستجيرِ مِنْ الرُمضاءِ بالنارِ، لَمْ يكن أمامه خيار - وَحالة الاستياء ترسمت عَلَى وجهه بفعلِ سياسةِ افقارِ الفقيرِ وإغناءِ الغني التي اتبعتها الحكومات العراقية المتعاقبة - سوى تذوق ألمِ التلصصِ عَلَى حياةِ الثراءِ التي يعيشها اللصوصِ وَالمفسدونِ وَالعابثونِ، وَلاسيماً " القططِ السمانِ " التي تَأبى دخولَ جحورها مِنْ دُونِ رادع، حيث أورث الفقرُ أهلَ العراقِ غمّاً كبيراً؛ بالنظرِ لعدمِ شعورِ المتسلقينِ إِلَى السُلطةِ باحتياجاتِ الفقراءِ عَلَى الرغمِ مِنْ أَنَّ بعضهم كانوا جزءاً مِنْ شريحةِ الفقراءِ يشاركونهم همهمِ المتأثري مِنْ ارتفاعِ نسبةِ البطالةِ بفعلِ قلةِ فرصِ العملِ وَجهلِ الكثيرِ مِنْ الناسِ بأسرارِ المهنةِ أو الحرفِ التي يمكنُ أَنْ يعتاشوا منها، بِيَدِ أَنَّهُم تَعَمَدُوا نسيانَ مَا

يعانيه أبناء جلدتهم مِنْ هموم، وانغمسوا فِي محاولة البحث عَنْ
الثراءِ وَالنفوذ، وَكَأَنَّهُمْ بِمَثَابَةِ ثَعْبَانٍ لَا هَمَّ لَهُ سِوَى الانسِلَاخِ مِنْ
جلده؛ لِأَجْلِ الْاِكْتِسَاءِ بِجلدٍ جَدِيدٍ يَضْفِي عَلَيْهِ حَيَوِيَّةً.

*

كيف أشعرُ بِجمالِ المنظرِ

إذا كنتِ

معصوبَ العينينِ ؟

الطيبةُ أُمِّي

رحلتُ قبلَ أَنْ تَلِدَنِي

وأبي شقَّ لَهُ قَبْرٌ

قبلَ أَنْ يَشُقَّ الْمَنْفَى لِسَفِينَتِي

نَهراً تَجَاهَ الْوَطَنِ

والقحطُ نَبَتٌ فِي الْحَقْلِ

قبلَ أَنْ يَنْبَتَ رِيشُ

جناحي

*

يمكنُ الجُزْمُ بِأَنَّ الْفَقْرَ الَّذِي صَبَغَ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ فِي بِلَادِنَا بِأَثَارِ
صَبِغَتِهِ الْمَتَمَثِّلَةَ بِالْبُؤْسِ وَالْحُزْنِ وَالْفَاقَةَ وَغَيْرِهَا مِنْ أَنْوَاعِ الْهَمُومِ،
كَانَ - وَمَا يَزَالُ - أَحَدَ أَوْسَى الْمَشْكَلاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَأَكْثَرِهَا

خطورة؛ بالنظر لِمَا أحدثه مِنْ تفاوتٍ كبيرٍ في مستوياتِ دخلِ الأسر، فليس بالأمرِ المفاجئِ أن يؤديَ الفقرُ المدقعُ إلى فشلِ دخلِ الأسرةِ في تلبيةِ حاجاتِ أفرادها الأساسيَّة، فضلاً عن خيبةِ العوامِ في الحصولِ علىِ فرصِ متكافئةٍ في المُجتمَع؛ إذ أنَّ هذا الأدمي المبتلى بالعوزِ والمهووسِ في البحثِ عنِ السعادة، وإنْ كانتِ قصيرةِ الأجل، لَمْ يَمُنحْ أباطرةِ السياسةِ الفرصةَ المناسبةَ لإثباتِ نفسه في الحياة، فلمْ يَكُنْ بوسعِهِ الانعتاقُ مِنْ أروقةِ المعاناةِ ومفارقةِ عالمِ الفقرِ.

*

زرع الليل فلم يحصد

سوى

عتمة كهفٍ

من صباحٍ مستريب!

*

إنَّ عدمَ رقيِ الإنسانِ إلى العيشِ بحياةٍ هانئةٍ ومطمئنةٍ ضمنَ المستوياتِ المعيشيَّةِ الجيِّدة، وَالَّتِي تشيرُ إلى صعوبةٍ تحمِّلهِ متطلباتِ الحياةِ وتكاليفها، فضلاً عن عجزه الاستمتاعُ بها أو إمتاعِ أفرادِ أسرته، لا تشكلُ الحالةَ السلبيةَ الوحيدةَ لتزايدِ رقعةِ الفقرِ؛ إذ يمكنُ القولُ إنَّ تأثيراتِ الفقرِ علىِ المُجتمَعِ كبيرةٌ وآثاره السلبية لا حصرَ لها، حيث لا تقتصرُ تأثيراته علىِ الحالةِ الإقتصاديَّةِ أو الاجتماعيَّةِ فَحسب؛ وإنما له مجموعةٌ متشابكةٌ مِنَ التأثيراتِ الكفيلةِ بتدميرِ أيِ مُجتمَع، ولعلَّ في القلبِ مِنْهَا وأكثرها خطورةً هو مَا بوسعِهِ التأثيرُ سلباً علىِ العلمِ والثَّقافةِ.

لا يخفى على كُلِّ متابعٍ مدى الألم الذي يحزُّ في النفس بسبب حياة الفقر والعوز التي عاشها الكثير من الأدباء والكتّاب والفنانين الذين وضعوا بصماتهم في سجل الإبداع قبل أن يرحلوا بشكلٍ مأساوي عن الدنيا، ولاسيّما مَنْ وافته المنية على قارعة الطريق، أو مَنْ أُلزمه حسّه الإنساني رفض " واقع " العبث بمصائر الناس، ومَا فرضته عليه أصالة الجذور مِنْ مواجهةٍ لمحاولاتٍ أقوياء العصر تكدير الحياة وتلوّثها بكُلِّ وسيلة، فكان أن دفع ثمنه العيش في البائس من الأمكنة التي لا تليق بالآدمية، أو ارتضاء أحد أُرصفة المدينة التي يعيش فيها مأوئاً، كما حصل مع الشاعر عبد الأمير الحصري (1942- 1978) الذي وُجد جثة هامدة في غرفة غاية في الرثاثة بأحد الفنادق البائسة، ومثلما حدث أيضاً مع صاحب رائعة " غريبة الروح " الشاعر الشعبي جبار الغزي (1946 - 1985) الذي عثر عليه جثة مشبعة بالمياه تحت جسر الجمهورية وسط بغداد في أعقاب يومين غزيرين بالمطر، فضلاً عن بقائها رهينة إحدى ثلاجات الطب العدلي في باب المعظم مدة عشرة أيام. كذلك كان المصير التراجيدي للشاعر عقيل علي (1949 – 2005) الذي اشتهر بعبارته الموجعة : " لا أقسى من غربه الوطن، فأنا لاجئ في وطني "، حيث فارق الدنيا بجسدٍ ممددٍ على أريكة محطة باص في أحد شوارع بغداد العاصمة. وهناك الكثير من تلك الحوادث التي تدل على ركون المبدعين لممارسة حالات الرفض والتمرد، بالإضافة إلى المعاناة الدائمة من شظف العيش وبؤسه إلى الحد الذي ساهم في ضياع هيبة الإبداع والمبدعين، وكان المقولة التي تزعم أن : " حرفة الأدب تورث الفقر " تخيم على فضاءات حياتهم.

*

حلمت يوماً

أنني
جناح
وكان ما بيني
وبين
الوطنِ المُباحِ
مشنقةً
تمتدُّ من ستارةِ الليلِ
إلى

نافذةِ الصّباحِ
وحيثما استيقظتُ
كانت السماءُ صهوةً
وسرجها الرّياحُ
*

حلمتُ يوماً أنني
قنديلُ
وكان ما بيني وبين الأهلِ
صمتٌ عارمٌ
وصرخةٌ تنبئُ عن قتيلٍ
وحيثما استيقظتُ
كانت الفراشاتُ على نافذتي
تنسجُ لي من كحلها

مندیل

*

مِنَ المَعْلُومِ أَنَّ السَّمَاوِيَّ مِثْلَ الكَثِيرِ - مِمَّنْ سَبَقَهُ وَمَا تَلَاهُ - يَنْتَمِي
إِلَى جِيلِ جُبَلِ عَالِي المَعَانَاةِ وَالِاضْطِهَادِ وَالْحَرْمَانِ، فَمِنْذَ أَنْ فَتَحَ
عَيْنِيهِ عَالِي هَذِهِ الدُّنْيَا فِي أَوَاخِرِ أَعْوَامِ العَقْدِ الرَّابِعِ مِنَ القَرْنِ
المَاضِي، وَجَدَ الشَّارِعَ المَحَلِّيَّ يَلْهَجُ بِتَنَاصٍ مَعَ قَوْلِ بَدْرِ شَاكِرِ
السِّيَابِ : " مَا مَرَّ عَامٌ وَالْعِرَاقُ لَيْسَ فِيهِ جُوعٌ "، عَالِي الرِّغْمِ مِنْ أَنَّ
أغْلِبَ دُولِ العَالَمِ كَانَتْ يَوْمَذَاقِ تَضَعُ مَهْمَةً مَكَافِحَةَ الفَقْرِ ضَمْنَ أَهْمِ
أَوَلُوبَاتِهَا؛ لِأَجْلِ التَّخْلُصِ مِنْ تَدَاعِيَاتِهِ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى. وَمِنْ
المُؤَكِّدِ أَنَّ السَّمَاوِيَّ يَحْيَى حِينَ أُطْلِعَ عَلَى الحَيَاةِ كَانِ أبُوهُ كَمَا هُوَ
حَالُ السَّوَادِ الأَعْظَمِ - فِي مَدِينَتِهِ وَبَقِيَّةِ مَنَاطِقِ جَنُوبِي البِلَادِ -
يَصَارِعُ الحَيَاةَ وَتَصَارِعُهُ، فِي مَحَاوَلَةٍ لِلانْتِصَارِ عَلَيْهَا؛ لِأَجْلِ
تَحْقِيقِ أَقْصَى مَا هُوَ مَشْرُوعٌ مِنْ " طُمُوحَاتِهِ "، وَالمُتَمَثِّلِ بِإِعَالَةِ
أُسْرَتِهِ وَلَوْ بِالكِفَافِ طَالَمَا يَجْعَلُهَا تَعِيشَ بِأَمَانٍ وَكَرَامَةٍ، فَلَا عَجَبَ
فِي أَنْ يَشْكَلَ الفَقْرَ وَالمُؤَلِّمَ مِنْ تَدَاعِيَاتِهِ أَحَدَ " دَعَائِمِ البِنَاءِ الشَّعْرِيِّ
" الَّذِي قَامَتْ عَلَيْهِ تَجْرِبَتُهُ الإِبْدَاعِيَّةُ؛ بِالنَّظَرِ لِتَأَثُّرِهِ بِبِيئَةِ مَدِينَتِهِ
البَائِسَةِ الَّتِي كَانِ الفَقْرَ مَخِيمًا عَالِي فِضَاءَاتِهَا وَالشَّقَاءَ يُوَشِّحُ لِيَالِيهَا،
إِلَّا أَنَّ تِلْكَ البِيئَةَ " المَهْمِشَةَ حُكُومِيًّا " كَانَتْ تَسُودُهَا مَعَايِيرُ الفِضِيلَةِ
النَّازِمَةُ لِحَرَكَتِهَا، وَالَّتِي فِي القَلْبِ مِنْهَا الطَّيِّبَةُ وَالصَّدَقُ وَالبَسَاطَةُ
وَتَكَافُلُ أَهْلِهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى تَمييزِهَا بِوِلَادَةِ القَامَاتِ الثَّقَافِيَّةِ فِي
مَجَالَاتِ الثَّقَافَةِ وَالفَنُونِ، فَلَمْ يَكُنِ الفَقْرَ عَائِقًا أَمَامَ امْتِطَاءِ أبنَاءِ
السَّمَاوَةِ صَهْوَةَ الإِبْدَاعِ، فَهِيَ هِيَ " السَّمَاوِيَّ يَحْيَى بِنِ عَبَّاسٍ " الَّذِي
يُعَدُّ بِوصْفِهِ أَحَدَ أَبْرَزِ شُعْرَاءِ العَرَبِيَّةِ وَأَكْثَرِهِمُ نِتَاجًا وَإِبْدَاعًا، يَخْرُجُ
مِنْ تَحْتِ عِبَاءَةِ الفَقْرِ وَمَحِيطِهِ الَّذِي لَا يَرْحَمُ إِلَى النُّجُومِيَّةِ وَالتَّأَلُّقِ
الدَّائِمِ.

*

أَمْسٍ ضُحَى

رأيتُ في بحيرةِ البَطِّ صَبِيًّا
يرتدي سحابةً ..

تضحكُ في مُقلتِهِ الحقولُ

رأيتُ في ضحكتهِ

براءةَ القانِنةِ البتولُ

وفي بياضِ البَطِّ لونَ قلبِها ..

وكنْتُ ما بينهما

سفينةً تُبحرُ في المجهولُ

تبحثُ عن طفولةٍ ضائعةٍ ..

وعن بساتيني التي

منذ اغتربتُ

لم يزرها موكبُ الفصولُ

*

في قصيدته " لماذا تأخرتِ دهرًا عليّ؟ " من مجموعته
الشعرية الموسومة " لماذا تأخرتِ دهرًا "، يركن السماوي ببلاغته
المعهودة وهو يتحدث عن زيارته إلى السماوة في أحلام اليقظة
إلى اعتماد اصطلاح غير مألوف بقوله :

" وأمي - إذا جعتُ - تشوي لي الماء " .

وَإِذَا كَانَ ثَمَّةَ مَا يَدْفَعُنَا إِلَى التَّسْلِيمِ بِضَرُورَةِ الْوُقُوفِ عِنْدَ الْعِبَارَةِ الْمَذْكُورَةِ أَنْفَاءً قَصْدَ إِدْرَاكِ مَا تَعْنِيهِ، فَإِنَّ الْوَاقِعَ يُشِيرُ إِلَى نِبَاهَةِ السَّمَاءِ وَيُشَبِّهُهُ بِتَوْظِيفِ الْبَلَاغَةِ فِي بِنَاءِ مَنْجَزِهِ الشَّعْرِيِّ؛ إِذْ أَنَّهُ وَظَفَ هَذَا التَّعْبِيرَ الْبَلَاغِيَّ " شَوِي الْمَاءِ " فِي تَوْصِيفِ وَاقِعِ الْفَقْرِ الَّذِي نَهَشَ فِي حَيَاةِ الْعِرَاقِيِّينَ بِعَلَامَةِ فَارِقَةَ، حَيْثُ أَرَادَ مِنْهُ الْقَوْلَ إِنَّ أُمَّهُ (وَكُلَّ الْأَمْهَاتِ الْعِرَاقِيَّاتِ الْفَقِيرَاتِ) كَانَتْ تَحَاوُلُ أَنْ تَبْتَكِرَ الطَّرِيقَةَ تَلُو الْآخَرَى أَوْ كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهَا السَّمَاءِيُّ بِحَيَاةِ بَعْبَارَةِ " فَتَحَ قَفْلَ بَابِ الْمَسْتَحِيلِ "؛ لِأَجْلِ طَرْدِ شَبْحِ الْجُوعِ عَنْ صِغَارِهَا. وَضَمَّنَ هَذَا السِّيَاقُ يَرْوِي السَّمَاءِيُّ إِحْدَى الْحِكَايَاتِ الَّتِي قَدْ يَصْعَبُ عَلَى الْأَجْيَالِ الْحَالِيَةِ تَصَدِيقِهَا، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا : إِنَّ أُمَّهُ - رَحْمَتُهَا اللَّهُ - طَبَخَتْ لَهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ مَاءً وَكَرْكَمًا وَبَصَلًا، فَأَكَلَ الْذُّ " مَثْرُودَةً " فِي حَيَاتِهِ.

عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنِّي لَا أَكْتُمُ خَشْيَتِي مِنْ اِحْتِمَالِ سُؤَالِ أَحَدِهِمْ عَنْ مَعْنَى " الْمَثْرُودَةِ " أَوْ " الْكَرْكَمِ "، فَثَمَّةَ وَاقِعٌ وَحَقِيقَةٌ يَنْبَغِي إِدْرَاكُهَا وَهِيَ أَنَّ الْبَارِيَّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنْسَى عِيَالَهُ؛ إِذْ أَثْبَتَ الْعِلْمُ الْحَدِيثَ أَنَّ فَوَائِدَ " الْكَرْكَمِ " عَظِيمَةٌ فِي مَوَاجَهَةِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْوَقَايَةِ مِنْهَا. يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ مَفْعُولَهُ فِي مَحَارِبَةِ السَّرَطَانِ يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ مُمَيِّزَاتِهِ الرَّائِعَةِ، حَيْثُ أَشَارَتْ بَعْضُ الدِّرَاسَاتِ إِلَى قُدْرَتِهِ عَلَى مَنَعِ نُمُو الْأَوْرَامِ بِفَضْلِ عَمَلِهِ بِشَكْلِ مَبَاشَرٍ عَلَى الْأَنْزِيمَاتِ وَالْجِينَاتِ، مَا يَفْضِي إِلَى مَنَعِ انْتِشَارِ خُطُوطِ الْخَلِيَّةِ السَّرَطَانِيَّةِ. وَبِالِاسْتِنَادِ إِلَى أَشْهَرِ عُلَمَاءِ الْأَوْرَامِ الْمَشْهُورِينَ، فَإِنَّ مَلْعَقَةً صَغِيرَةً مِنْ الْكَرْكَمِ يَوْمِيًّا، سَتَكُونُ كَافِيَةً لِتَوْفِيرِ الْحَمَايَةِ ضِدَّ السَّرَطَانِ.

*

كَاللِّصِّ : فِي حِذْرِ أَطْلُ عَلَيْكَ مِنْ ثَقْبِ بَذَاكَرْتِي

وَأَدْخَلَ خَلْسَةً مِنْ شَرْطَةِ الطَّرَقَاتِ بَيْتَ أَبِي

وقد أدعو صديقاً للعشاء: حساء دخنٍ دونما لحمٍ..

وشيء من سقيط التمر..

خبزٌ " طابكٌ " زادته أُمي بالدعاء العذبِ عافيةً..

ومثل اللصّ : أخرجُ قبل صوت الديكِ خشيةً شرطة الطرقاتِ

يانخل السماءَ كيف حال القبرّات ؟

أما يزال هديلها كالأمس ؟

أمرٌ مُسَلَّمٌ بِهِ أَنْ سَارِقَ الطُفُولَةِ أَوْ مَغْتَصِبِهَا - مُسْتَبِدّاً كَانَ أَوْ مُفْسِداً، أباً كَانَ أَوْ حاكماً، متعلماً كان أو جاهلاً، صديقاً كان أو عدواً - اعتاد على التلذذِ بجعلِ البؤسِ يتشرب في نفوسِ النشءِ الجديدِ مِنْ دُونِ أَنْ يَرَفَ لَهُ جَفَنٌ، فالأطفال بحسبِ يحيى السّماوي : " أكثرُ مروءةً وِإنسانيةً وَعِزَّةَ نَفْسٍ وَقِناعةً وَطَهراً وَحَتى شِرفاً مِنْ بعضِ الكهولِ الذين أكلوا وما زالوا يأكلون آباءنا وأمّهاتنا ". وَضَمَنَ هَذَا المَعْنى يُؤكِّدُ السّماوي مَعْنى ِإنسانيةِ الطُفُولَةِ بقوله : " لازلْتُ أتذكّرُ أَنَّ الطيبَ أباي رَحِمَهُ اللهُ، اشترى لي قطعةً شكولاتةً عَلَى شِكلِ حَمَامَةٍ، فلم أأكلها خَوْفَ أَنْ أُخسرَ الحَمَامَةَ ".

*

صُبِّينِي فِي كَأْسِكَ لِأَشْرَبِكَ قُبْلَةً قُبْلَةً ..

لا تخافي من جنوني

فالطفلُ الجائعُ لا يأكلُ دُمَيْتَهُ !

*

خُذِنِي صَارِيَةً لِشِرَاعِكَ ..

وَمِرْوَدًا لِمَكْحَلَّتِكَ ..

وَمِحْرَاثًا لِتُنُورِكَ ...

أو :

كوني حقلًا لبذوري

ورقَةً لقلمي

وقوساً لسهمي

فإنَّ حاءَ حقلِي سيبقى بلا معنى

بدون باءٍ بئرك !

*

لا عجب من تفنن الطغاة والمستبدين - الذين انغمسوا في شهوة السلطة وحنون العظمة - بأساليب الإذلال، فضلاً عن زيادة إيغالهم في إيقاع الأذى بجموع الفقراء على مرأى ومسمع القائمين على المنظمات والمؤسسات الأممية التي صدعت رؤوس الناس - الذين لا حول ولا قوة لهم - بشعارات براقية مثل العدالة الاجتماعية والحقوق المكفولة وغيرهما؛ إذ لطالما سعى الطغاة إلى إخضاع السواد الأعظم من المجتمع للسيطرة الكاملة من دون معارضة، وهو الأمر الذي يملئ عليهم وجوب المضي بعامة الناس إلى حد التأرجح في الحياة ذات اليمين وذات اليسار حتى بلوغ ما يشابه " النقلة الجينية " التي من شأنها ترويض العامة على التكيف مع الفقر والخنوع، فضلاً عن الحرص على استبعاد محاولة التفكير بالخروج من جلاببهما في ظل جعل واقع الحال يستبطن ما يفضي

من المحركات إلى استبدال مشاعر اليأس والإحباط بمشاعر
البهجة.

*

هم يقتلون النخل !
إنَّ النخلَ مُتَّهَمٌ بِرَفْضِ الإِخْنَاءِ
وبالتشْبُثِ بِالْجُذُورِ ..
وباخْضِرَارِ السَّعْفِ ..
مُتَّهَمٌ بِإِيوَاءِ الْعَصَافِيرِ الَّتِي
لَا تُحْسِنُ اسْتِقْبَالَ :
أَعْدَاءِ الطَّفُولَةِ ..
وَالطَّوَاغِيَةِ الْكِبَارِ ..

والنخلُ مُتَّهَمٌ
بتأليبِ المِيَاهِ عَلَى الطَّحَالِبِ
فِي بَحِيرَاتِ الدَّهَاقَةِ الصَّغَارِ
الكَافِرِينَ بِعَشْقِ نَخْلَتِنَا الْقِرَارِ
وَلِنَا عِنَادُ الْمُسْتَحِيلِ بِوَجْهِ جُلْجَلَةِ التَّخَاذُلِ
مَاذَا يَرِيدُ الْمُتَخَمُونَ مِنَ الْجِيَاعِ ؟
فَلِمَ يُعَدُّ فِي الْحَقْلِ
مَا يُغْرِي الْمَنَاجِلَ بِالْحَصَادِ
النَّخْلُ مَعْنَى بَرْدٍ الْإِعْتِبَارِ إِلَى السَّنَابِلِ

أَمْ أَنْ حَرْتاً بِالْقَتَابِ ..

سَيُقِيمُ بُسْتَاناً جَدِيداً

لِلنُّكَالِي وَالْأْرَامِلِ ؟

لَا يَدُّ لِلنَّخْلِ الْمُحَاصِرِ بِالْفَجِيعةِ

أَنْ يِقَاتِلَ

نُوداً عَنِ الْعُشْبِ الْمُخَضَّبِ بِالدَّمَاءِ

وَعَنْ أَرَاجِيحِ الطَّفُولَةِ

وَالْبَلَابِلِ

*

يُمْكِنُ الْجُزْمُ بِأَنَّ مَوْتَ " الْحَب " بِمَعْنَاهِ الْإِنْسَانِي النَّبِيلِ فِي قُلُوبِ
وِلَاةِ الْأَمْرِ، يُعَدُّ الْبَاعِثَ الْحَقِيقِي لِتَسْلُطِهِمْ عَلَى الشُّعُوبِ، وَالْإِيغَالِ
فِي دُرُوبِ الظُّلْمِ وَالْإِسْتَبْدَادِ وَالْوَحْشِيَّةِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَشْكَالِ التَّعَسُّفِ
الَّتِي تَمَارَسُهَا الْكَثِيرُ مِنَ الْأَنْظِمَةِ الْإِسْتِعْبَادِيَّةِ، فَلَا غَرَابَةَ فِي أَنْ
تَكُونَ صَرَخَاتِ الْفُقَرَاءِ وَأَهَاتِهِمْ مَثَاراً لَضُحْكِ الطَّغَاةِ بِنَشْوَةِ
وَجُنُونِ. وَلَيْسَ خَافِئاً أَنَّ الشُّعُورَ بِتَشْبِيعِ نَفُوسِ الرَّاغِبِينَ فِي التَّسْلُطِ
عَلَى رِقَابِ النَّاسِ بِصِفَاتِ الْبِغْضَاءِ وَالْحَقْدِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمَسَاوِي،
وَجَدْتَ لَهَا مَسْتَقَرّاً فِي الْكَثِيرِ مِنَ الْإِنجَازَاتِ الْإِبْدَاعِيَّةِ لِلْأَدْبَاءِ
وَالْكَتَابِ وَالْمَفْكَرِينَ؛ إِذْ طَالَمَا شَغَلَتْ الْمُبْدِعِينَ الَّذِينَ عَمَدُوا
لَاتِّخَاذِهَا رَمُوزاً مِنْ أَجْلِ التَّعْبِيرِ عَنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَرِيدُونَ الْخَوْضَ
فِيهَا عَلَى طَوْلِ التَّأْرِيخِ الْإِنْسَانِي، وَلَعَلَّ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الْمَوْرُوثَاتِ فِي
هَذَا الْإِطَارِ مَقُولَةُ الشَّاعِرِ وَالْكَاتِبِ وَالنَّاقِدِ الْأَدْبِيِّ وَالْمُتَرْجِمِ
وَالْفَيْلَسُوفِ فِرْنَانْدُو بِيَسُوا (1888 - 1935) الَّذِي يُعَدُّ مِنْ أَهَمِّ
الشُّخْصِيَّاتِ الْأَدْبِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، فَضْلاً عَنِ كَوْنِهِ أَحَدَ أَكْبَرِ
شُعْرَاءِ اللُّغَةِ الْبَرْتَغَالِيَّةِ، وَالَّتِي يَقُولُ فِيهَا : " نَعَدَّبُ أُخُوتَنَا مِنَ الْبَشَرِ
بِبِغْضِنَا، بِحَقْدِنَا، بِخَبِيثِنَا، ثُمَّ نَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: الْعَالَمُ سَيِّئٌ ! " .

*

الثيابُ القصيرةُ

قد تخفي تحتها سواطيرَ طويلة

قد لا تكونُ الدموعُ

دليلَ تهجُدٍ

وإثباتِ براءة ..

فأخوة يوسفَ

جاؤوا أباهم مُنتحبينَ

وعيونهم

تزرخُ دموعاً

*

لا نبعد عن الحقيقة إذا ما قلنا إنَّ الأيمانَ بحرية الإنسان وَالتيقنَ مِنْ حتمية الدفاع عن قضاياه تُعدُّ بوصفها العوامل الرئيسة التي دفعت طبيياً في ريعانِ الشباب مثل " تشي جيفارا " الَّذِي يُعدُّ مِنْ ألمع قادة أميركا اللاتينية الثوريين، وجعلته يهجر سُبُل العيش الرغيد وَالهني في أوساطِ بحبوحة السلطة وَالنفوذ؛ إذ لم تجذبه رفاهية الحياة وَأضواؤها، وَلَمْ تستهوه مخملية فضاءات وزارة الصناعات الكوبية وَالبنك الوطني اللذين جعلاه القيصر " الافتراضي " للاقتصاد الكوبي، فكان أن انغمسَ بحركة المقاومة في الكونغو ثم أحرش بوليفيا؛ إذ امتازت حياته بطابع النضال وَالكفاح المرير

وَالانحياز إلى الفقراءِ وَالْمعدمينِ وَالْكَادحينِ فِي تلكِ القارةِ، مَعَ العرضِ أَنَّهُ ينحدرُ مِنْ أبوينِ يعودانِ إلى أصولِ إيرلنديَّةٍ وَإسبانيةٍ وَمولودِ فِي الارجنتينِ. وَمِنْ المؤكِّدِ أَنَّ المواقفَ الخالدةَ الَّتِي دافعَ بها جيفارا وغيره مِنْ المناضلينِ - سياسيينِ وكتابِ وفنانينِ ومثقفينِ ومفكرينِ وغيرهم - عَن نبلِ القيمِ الإنسانيَّةِ، تعبرُ فِي واقِعِها الموضوعيِّ عَن فضائلِ وَمكرماتِ وَأعمالِ بطوليةٍ تركتْ علاماتَ كبرى فِي التاريخِ الإنسانيِّ بوصفِها بصمةَ خالدةٍ فِي مسارِ الدفاعِ عَن الشعوبِ المقهورةِ فِي ما تباينَ مِنْ أرجاءِ المعمورةِ، مَعَ العرضِ أَنَّ عجلةَ الاستبدادِ والتسلطِ مَا تزالُ تعملُ ودائرتهاُ أخذتْ فِي الاتساعِ بوحشيةٍ، ما يعني إلزامَ مَنْ يتصدى للطغاةِ استحضارَ المحبةِ الإنسانيَّةِ وَمَا يتمحورُ حولها مِنْ قيمِ نبيلةٍ، بوصفِها أساسِ المواجهةِ. ويحضرني فِي هَذَا الإطارِ بوحٌ رائعٌ للشاعرِ التركيِّ ناظمِ حكمتِ (1902 - 1963) الَّذِي وُلِدَ فِي كنفِ أسرةٍ ثريةٍ وَممتنفةٍ، إلا أَنَّهُ عارضَ الإقطاعيةَ التركيَّةِ، وَأصبحَ شاعرَ البسطاءِ وَالْمعوزينِ وَأصحابِ المهنِ البسيطةِ، وَالَّذِي تأثرَ بشعره الكثيرِ مِنَ الشعراءِ العراقيينِ مثلَ عبد الوهاب البياتيِّ وَبلند الحيدريِّ، حيثُ يقولُ حكمتُ :

يا طفلي يا ذات العيون الذهبية

كنت سأشتري لك البنفسج هذا الصباح

لكن الرفاق كانوا جياعا

فاشتريت لهم خبزا

وكتبت لك قصيدة حبّ.

لا يخفى على كُلِّ متابعٍ إنَّ كانَ سياسياً أو اقتصادياً وحتى الإنسانِ العاديِّ، أنَّ سياسةَ الحكوماتِ المتعاقبةِ فِي العراقِ، لَمْ تكنِ جديرةً بضمانِ العيشِ الكفافِ للفقراءِ والمعوزينِ، فالمستقبلُ الَّذِي يصبو إليه الكادحونُ ظلَّ حلماً يراودهم، فلا أملُ يرتجى بالعيشِ فِي عالمٍ

من الحرية الحقيقية والسعادة والرفاه. وأدّهى من ذلك الحضور
الفاعل داخل النفس البشريّة لهاجس الاغتراب في الوطن، فقمة
الاغتراب أن يكون الإنسان غريباً في دياره وما بين أهله وأبناء
جلدته، إلا أنّ تلك الشرائح الاجتماعيّة - وإن ارحى عليها ليل الفقر
سدوله - لم يفضّ بهما الفقر المدقع والعوز المؤرق إلى الخنوع،
ولا الذل عرف طريقاً لإكساء وجوه أهلها، ولم تتلاشّ جذوة الأمل
ببزوغ فجر جديد في نفوس هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً من حطام
الدنيا سوى الحب والتكافل والطيبة، فحالة العوز التي كانت تخيم
على أيامهم ولياليها لم يكن بمقدورها إيقاف الحياة بالنسبة لأبوة
الضيم، وإنما تجلت بأنبل صور الرفض والتحدي، فكانت المواجهة
لسدنة الاستبداد الذين ظلّت نفوسهم سجيّة مغامراتها بفعل تيقنهم
من أنّ لا رادع يردعهم ولا خشية من عقوبة قد تطالهم.

*

من حُسنِ حظي

أنني أبدلتُ :

بالوطنِ المدينة ..

بالمدينة منزلاً ..

بالمنزلِ الطينيّ ركناً من بقايا حُجرة ..

بالحجرة الشبّاك

أفتحه على نهرٍ بلا ماءٍ

وبستانٍ بلا شجرٍ

وفاخنةٍ تفتشُ في الفضاءِ عن الفضاءِ

من حسنِ حظي

أنني هيأتُ :

حقلي للخريف ..

وللحريق السنديانة ..

والحديقة لليباب ..

وللفراق الأصدقاء

من حسن حظ العشق

أن نخيل دجلة

لا يجيد الإنحاء

ولا يمدُّ ظلاله للمارقين ..

وأن بادية السماوة لا تُبادلُ بالرّمال

التبر والياقوت ..

والمعصومة الأعذاق تنسجُ سعفها كوخاً ..

تُبايعني أميراً في بلاطِ الورد ..

عرشي قلبُها

والصّولجانُ الكبرياء

وإذن ؟

سأطبقُ مقلتيّ على غدٍ عذبٍ

أرى وطناً بلا قهرٍ

ومئذنةً تُكبرُ للهوى

فيومٍ بالعشاقِ طفلٌ مُشمسُ العينينِ

يلبسُ بردةً خضراءَ من عشبٍ وماءٍ

*

بدأ السّماوي يحيى محاولة الانتماء إلى اتحاد الطلبة ولمّا يَزَلْ في مرحلة الصبا، حيث دفعته روحه الوثابة المليئة بالحسّ الوطني منذ أن كان طالباً في الصفّ الأول المتوسط إلى تلك المحاولة التي قد يرى فيها البعض مغامرة؛ نتيجة تأثره بزواج شقيقته التي تصغره بعام واحد الذي كان منتمياً إلى الحزب الشيوعي العراقي حينئذ، إلا أن صغراً سنة أحرّ تحقيق مرامه إلى بدايات مرحلة الدراسة الثانوية التي تشرف فيها بعضوية الحزب الذي يشير إليه باسم "أحفاد عروة بن الورد". وقد كان لاتحاد الطلبة الأثر الفاعل في تحوله مما توجبه مرحلة المراهقة من إفرانها، والتي من بينّها صدور مجموعته الشعرية الأولى "عيناك دنيا"، حيث انتقل المراهق إلى مرحلة الفتى المنشغل بهوم الإنسان ويبدأ شبابه الشعري في ديوانه الثاني الموسوم "قصائد في زمن السبي والبكاء"، مع العرض أن تلك الفترة تركت في نفسه ذكريات لم ينسها. وتنامي هذا الحس الوطني في مرحلة دراسته الجامعية التي عمل خلالها "مجاناً" في صحيفة "طريق الشعب". وضمن هذا الإطار لا ينسى السّماوي تأثره بأساتذته الذين أسهموا في صنع الوجدان الوطني لطلابهم أمثال الأساتذة عزيز الحاج علي عيسى الجبلابي وحسين علي الغرة وزوج شقيقته الشهيد إبراهيم الحساني "ابو نوفل"، فضلاً عن بقية رموز الحركة الوطنية في مدينة الفقراء والكادحين "السماوة".

*

لابدّ أنك تسألين الان

عن أسباب إيقادي الفتيل

في ورد أحلامي ..
وعن سرّ انطفاءِ العشبِ
في قلبي ..
وعن سببِ الرّحيلِ

أمضيتُ عمري واهماً ..
حيناً أرى - في الحلم - بادية السماوة
واحةً ..
والنخل - وهو ماأذني الخضراء -
يرفلُ بالهديلِ

وأرى " أبا عوفٍ " و " عمّارَ بنِ ياسِرَ "
يثردانِ الخبزَ في صحنِ
ويقتسمانِ ما في الكوزِ من دمعِ السماءِ ..
وآلَ دجلةَ يسمرون على الضفافِ ..
أرى الخليفةَ والخليلِ

يتناغيان ..
أرى بيوتَ الطينِ ضاحكةً ..
أرى العشاقَ

يفترشون ساحاتِ المدائنِ في الأصيلِ

حتى أفقتُ على :

المُلثَمِ ..

والفقيهِ الزُّورِ ..

والسيِّافِ ..

والحاميِ الدخيلِ

فإذا بيومي يلطمُ الشمسين من جزعِ

على غدي القتيلِ

*

يمكن الجزم بأنَّ السَّماويَّ يحيى، شاعر متوهج الموهبة، أفضى بتميزِ عطائه الشعري إلى المُساهمةِ في إثراءِ الأدب العربي بمنجزِ أدبي مائز، أصبح يشكل - بتماسه معَ معاناةِ الفقراءِ وهمومِ الوطنِ والإنسانِ - وجدانَ أجيال، فالمثقف كما قيل: " ينبغي أن يكون صاحب رؤية وموقف، متجاوزاً دائماً لواقعه، متصادماً معَ ثوابتِ مجتمعه والسُّلطةِ القائمة ". وقد حظيت تجربة يحيى السَّماوي الشعرية باهتمامٍ متزايدٍ من قبلِ النقادِ العراقيين والعرب، فضلاً عن الشعراءِ والأدباءِ والقراءِ، فالباحثِ والناقدِ العراقي صباح محسن كاظم يشير إلى تجربةِ السَّماوي يحيى بقوله: " السَّماوي تجربة إنسانية ثرة .. من جنوب القلبِ سماوة النخيل والسمار ووظائف الفرات...الشاعر والاستاذ والمكافح والسجين والشريد اكتوى بها القلب الكبير...مخاضات ..من سجن الوطن الى سجن رفحاء الى الغربية الضبابية...جعلته يبحث عن الخلاص ..عن السلام...عن

الحب ". وَضَمَنَ هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ النَّاقدُ العِراقِي جَمعةَ عبدِ الله : " إنَّ اسلوبِيَّةَ السَّماويِّ في خَلقِ المَخيَلَةِ الشَّعريَّةِ المَلهُمةِ، في الصِّياغَةِ والتَّكوِينِ والبنائِ، لَهَا مَنهجِيَّةٌ وخصوصِيَّةٌ يَتَميِّزُ بِهَا السَّماويُّ في الاسلوبِيَّةِ الشَّعريَّةِ التي يَنْتَهجُها وِبرَعُ بِهَا بِتَألُّقِ جَماليِّ كَبيرِ، تَتَمَثَّلُ في التَّركيزِ عَلى خَلقِ الصُّورةِ الشَّعريَّةِ المَتكامِلَةِ بِحَيْثُ يَجعَلُها ناطِقَةً بِالصَّوتِ والصُّورةِ، في مِشاعِرِها المَتدَفِّقَةِ، بَرزَ في البِنِيَّةِ المَعمارِيَّةِ في خَلقِ الصُّورةِ المَتكامِلَةِ، شَعرياً ولِغوياً دُونَ اِطنابِ في السَّردِ الشَّعريِّ، وانما خَلقَ مَحصولَةَ الصُّورةِ الكَلِيَّةِ المَشهَدِيَّةِ التي تَتكوِنُ بِالاختِزالِ والتَّكثيفِ، وفي هِندسَةِ شَعريَّةِ مَعمارِيَّةِ مَتألِّقَةٌ " كَذَلِكَ يَنْحِي الشَّاعِرُ العِراقِي عبدَ الكَرِيمِ مُحَمَّدَ الحَسونِ بِالمَسارِ ذاتِهِ حينَ يَقولُ : " تحِيَّةُ اِجلالِ وتَقديرِ لَشاعِرِنا الكَبيرِ المَعطاءِ السَّماويِّ الَّذِي ألبَسَ الشَّعْرَ ثوبَ العَافِيَةِ بِنصوصِهِ المَتَميِّزَةِ واشعارِهِ المَخضَلَةَ بِندى اِزاهيرِ الحَبِّ والحَنانِ والحَبلى بِبِشارةِ الأملِ الَّذِي سَيَلْقِي ظلالَهُ عَلى رِبعِ ارواحِنا التي أمَلَّتْها سَنينُ القَهْرِ " .

وَعَلَى ذَكَرِ " الأرواحِ الَّتِي أمَلَّتْها سَنينُ القَهْرِ "، لا مَناصَ مِنَ الاعترافِ بِصَبْرِ السَّماويِّ وَتَمسِكَه بِالأملِ في انجلاءِ غيومِ الظلامِ وبزوغِ فجرِ جَدِيدٍ وَإِنْ تَأخَّرَ، فَهُوَ الَّذِي كَتَبَ ذاتِ يَومٍ إلى صَديقِهِ الشَّاعِرِ كَرِيمِ الثَّورِيِّ - وَرَبِّمًا كانَ يَمازِحُهُ - بِقولِهِ : " بَعْضُ التَّأخَّرِ جَميلٌ أَيُّها الحَبيبُ ... مِنَ أمثلةِ ذلكِ : تَأخَّرنا في الوَصولِ إلى المَقاعدِ الأمامِيَّةِ في سياراتِ النَقْلِ العامِّ، فَناجِسُ في المَقاعدِ الخَلْفِيَّةِ، لَنكتَشِفَ أَنَّها الأَجْمَلُ والأَبهى؛ لِأَنَّ جِلاسَ المَقاعدِ الأمامِيَّةِ لا يَرونَ غيرَ زجاجِ الوَاجِهةِ، أما الجالسونَ في الخَلْفِ فإنَّهُم يَرونَ جَميعَ الرِكابِ " .

*

لن يكون بعيداً اليوم الذي ينتقم فيه :

الجرحُ من السكينِ... ..

الدموع من دخان الحرائق

الشجرةُ من الفأسِ

الأقدام الحافيةُ من الأشواك

القيودُ من صانعيها

الأوطان من السماسرة

وظباء يقيننا

من ذئاب الظنون !

لن يكون بعيداً اليومُ الذي يتآلفُ فيه :

الخبزُ مع الجياع

العشبُ مع الصحارى

الذئبُ مع الشاة

الوسنُ مع الأجنان المسهدة

هذا ما قرأته في كتاب عشقي

المكتوب على فمي

برحيق رضابك !

*

يشير الأديب العراقي حسين السوداني إلى شاعرية يحيى السماوي بقوله : " أنت لست من سلالة بني ادم بل من سلالة الجن الذين اختطفوا يوماً - خرافة - أنت من عصابة العفاريت لغة, بلاغة وصوراً جمالية شعرية عذبة. قرأت كثيراً باللغة التشيكية لشاعر الرومانسية والجمال - يسينين - الشاعر الروسي العظيم فتوصلت

الى قناعة تامة بان شيطان الشعر وليس ملاكه هو الذي يزق الشعر
زقاً بقلبك كما كان يفعل مع - سيرجي يسينين - . رومانسيته
السحرية قريبة جداً من رومانسيته إلا أنه شاعر الريف وأنت
شاعر المدينة. هنيئاً لك ولنا نحن قراء شعرك هذه الشاعرية
الرهيفة ". وَفِي شهرِ نيسانِ مِنْ عامِ 2009م وصلتَه رسالة مِنْ
الدكتور يحيى معروف - إيراني الجنسية - يقول فيها : " أخي
العزيز الأستاذ يحيى السماوي المحترم .. انه من دواعي فخري
وسروري ان اعلن إلى سيادتكم باني اعمل استاذا مشاركا بجامعة
رازي في كرمنشاه بايران - كلية الآداب والعلوم الانسانية قسم
اللغة العربية - ولنا اطروحات مختلفة عن شعراء العرب الكبار،
والآن افتخر أن اقترح لطلابي باختيار موضوع اطروحتهم حول
سيادتكم كشاعر مجيد ورومسي فذ، ولذلك أتمنى من حضرتكم أن
ترسلوا لنا دواوينكم الشعرية عن طريق البريد الإلكتروني للوقوف
على قصائدكم القيمة أخوكم الدكتور يحيى معروف "

*

الخبز يشكو الجوع

والينبوع يستجدي السراب

وتشذ الشمس الضياء من الفوانيس الكفيفة

ما الجديد إذن

إذا جددت مغنيها الربابة

والنديمة صيرت من شعرها

حبلاً لمشنقة.. ومن شباكها لهاز قلبك

مقصلة ؟

*